****

**الاستاذ : خالد أيت أزروال**

**باحث في الحوار الديني والحضاري.**

**المغرب، بني ملال.**

**الموضوع: القيم وأثرها في الواقع المعيش:**

لاشك أن تفعيل وتنزيل القيم الحضارية في حياة الناس يمكن أن يشكل سبيلا للخروج من الواقع البئيس، كما يمكن أن يفتح نافذة ويلقي ضوءا كاشفا على عملية التوليد الذاتي، والوقاية الثقافية، ويقدم أنموذجا حضاريا إنسانيا مؤهلا للحوار والشهود الحضاري، يعضد هذا ما ذهب اليه المفكر فتح الله كولن " فإن كنا الآن نفكر في إعادة بناء الذات من جديد، ونبحث عن أسلوبنا الذاتي الحضاري، فينبغي أن نتخلص من احتلال المفاهيم والأفكار الغربية في داخلنا والمبرمجة على تخريب جذور الروح والمعنى فينا، وأن نتبع بالضرورة سبيلا يمكننا من العمل على طبع فكرنا الذاتي ونظامنا الاعتقادي الذاتي وفلسفتنا الذاتية في الحياة، وفق نسيجنا الحضاري الخاص.[[1]](#footnote-1) يلزمنا لزاما ان نبحث عن اسلوبنا الحضاري الخاص- وان ننتهي من التبعية الغربية العمياء اللهم في ما فيه نفع - الذي يتوافق مع عقيدتنا الصافية ويتماشى مع ذاتنا وهويتنا الحضارية، واستثمار اركان الحضارة. كما بينها فيلسوف الحضارة - مالك بن نبي- بقوله " ان مشكلة الحضارة تتحلل الى ثلاث مشكلات اولية: مشكلة الانسان، مشكلة التراب، مشكلة الوقت، فلكي نقيم بناء حضارة لا يكون ذلك بأن نكدس المنتجات، وإنما بأن نحل هذه المشكلات الثلاثة من أساسها"[[2]](#footnote-2) فهذه الاركان الثلاثة الأساسية ينبغي استثمارها بشكل عقلي ومنطقي، فالعناية بالإنسان أولا باعتباره عماد التنمية وبصفته خليفة الله في ارضه، ثم الاهتمام بالتراب ثانيا باعتباره مكان استخلاف الانسان، من اجل القيام بالوظيفة التي من اجلها خلق وليقوم ببناء العمران، واخيرا الوقت باعتباره الحافز والدافع للقيام بكل شيء في وقته المناسب والا سنتأخر عن الركب وقد لا نلحق اذا اهملنا عامل الوقت وحركته . وهاته الأركان بينها كذلك المفكر التركي مع اختلاف طفيف فقال " ان أهم اركان ظاهرة الحضارة هو الانسان المؤهل، واقوى أسسها الحيوية هو دولة حرة ومستقلة، وأثمن رؤوس اموالها هو الزمن ولا نشك ان الدول المتقدمة قد استغلت هذه المقومات بأحسن وجه وعلاوة على استغلالها هذه المقومات استغلالا حسنا فإنها لم تهمل أبدا تقسيم الوظائف واحترام الاختصاصات والاهتمام بالإنسان ومكافأة النجاحات واستثمار الامكانات الأولية التي وهبها الله تعالى لها استثمارا مجديا.[[3]](#footnote-3) فاستغلال هذه الاسس الثلاث بات لزاما واصبح واجبا على الامة، اذا ارادت ان تبني حضارتها وتلحق بالركب وتساير العصر والنهوض بالواقع المعاش وتحقيق النجاح والشهود الحضاري.

1. أسس الحضارة الاسلامية :

" والحضارة الاسلامية، منذ تأسيسها القرآني والنبوي، كانت حضارة قيم ومفاهيم، وليست حضارة صور وأشكال، غايتها تنمية الانسان، في سعيه الحضاري، والارتقاء به في مراتب الكمال العقلي والخلقي، من خلال دعواتها الى : تحصيل المعية الالهية بالانضباط بمعيار الدين، والعمل على مقتضى الشرع الالهي، فيؤمن المسلم بوجود الألوهية وراء كل شيء، فيعلم أن الحق يخاطبه في كل شيء، وأن هذه المخاطبة مستمرة استمرار الحياة، فحيثما توجه وجد ربه، مراعيا أمره ونهيه، ويعلم أن رؤية الله له لا تنقطع، ومن ثم فهو في كل أعماله مطالب بأن يراقب نفسه، ويراقب ربه، فهو دائر بين تلقي الخطاب من الله في كل شؤون حياته، وتحمل الرؤية من الله في كل أعماله"[[4]](#footnote-4) فالحضارة الاسلامية حضارة أفعال وعمل، وليست فقط حضارة كلام وأقوال، حضارة تطبيق وتنزيل، وليس فقط حضارة تنظير وتجميع، حضارة تربط الانسان بربه وتجعل كل شؤونه ذات صلة بالله ، واستحضار مراقبة الله عز وجل في كل الامكنة والازمنة، " كما ان للقيم دور مهم في توحيد مجتمعاتنا، فالقيم الانسانية هي جوهر الاديان والحضارات الانسانية كلها وبالتالي هي القاسم المشترك الذي يوحد مجتمعاتنا المكونة من أديان ومذاهب وتوجهات فكرية وسياسية مختلفة، عندما نقيم مجتمعاتنا على أساس ديني أو مذهبي أو طائفي أو عرقي أو إيديولوجي فسنذهب بمجتمعاتنا وأوطاننا إلى التفكك والصراعات الداخلية أما عندما نقيم مجتمعاتنا على أساس القيم الانسانية أي العدالة والحرية والمساواة واحترام حقوق الانسان وغيرها من القيم الانسانية فسنذهب بمجتمعاتنا إلى الوحدة والقوة وستصبح اختلافاتنا تنوعا يتحرك في إطار هذه القيم ويزيد مجتمعاتنا غنى ونماء"[[5]](#footnote-5) فكل المجتمعات رغم الاختلاف الموجود بينها في الدين واللغة والعرق والجنس واللون، تسعى وتكدح من أجل نصرة القيم والاخلاق باعتبارها فطرية، وباعتبارها الخلاص من كل ما تعاني منه الانسانية من حروب وصراعات وما الى ذلك، سيرا على هذا المنوال حققت الحضارات السابقة تقدما وثراء في كل التخصصات والمجالات.

" يقول فتح الله كولن " ان تلك الحضارات التي كانت تذهل العقول وتبهر العيون بغناها الثقافي، لم تظهر في روما وأتينا ومصر أو بابل فجأة من غير مقدمات، إن الثقافة في كل مكان إنما ولدت بعض حضانة طويلة في عالم المشاعر والافكار للأفراد، وفي السفوح الخصبة للوجدان العام، واستقت من المناهل الداخلية بشكل مباشر، ومن الأخرى الخارجية بعد الترشيح والتصفية، فترعرعت حتى صارت بعد زمان، عمقا مهما لطبائع الشعوب ولونا ظاهرا لحياتها ثم احاطت بأرجاء الحياة كلها وان لم تجر الالسن بالكلام عنها دائما، فهيمنت على حياتها في المعبد والمدرسة والشارع والبيت والمقاهي وغرف النوم... حتى ان الناس لو لم ينصاعوا لها بإرادتهم ووعيهم.

علينا أن نبحث عما نأمله لغدنا في نقطة تتلاقى فيها البيئة الصالحة وعشق العلم وعزم العمل والبحث المنهجي فإذا ما أثارت البيئة الصالحة العشق العلمي، وألهبت العزم على السعي والانجاز، فستشعر القلوب الحساسة بذلك في أعماق كيانها بعملية امتصاص خارقة، ثم تقومه ثم تضعه موضع التنفيذ في إطار منهجية معينة، وبعد ذلك تعمل الدائرة الصالحة للارتقاء بالهامات وتداعيات وتركيبات وتحليلات جديدة تعقبها باستمرار واطراد الجهود الفكرية والنظم المنسجمة مع مقوماتنا الذاتية والمتوافقة مع رؤيتنا ومبادئنا الحضارية[[6]](#footnote-6) فالعمل بهذه القواعد الاربع من شأنه أن يحقق للامة نهضتها وتقدمها، فالأمة تزكو بالعلم وتزدهر بالعلوم وترتقي بالمعرفة وتسمو بالمعارف، وهكذا تصير أمة صالحة طيبة طاهرة، تنتقي المناهج المناسبة، وتختار الوسائل المواتية، وتسلك الطرق المستقيمة، وتبحث في مباحث جليلة، لتستنبط الكنوز الثمينة، والدرر النفيسة، لتجلب الخير الكثير، والنفع العظيم، وتواكب العصر، وتلحق الركب، وتبني الحضارة، وتشيد العمران، وتحقق الاستخلاف، وهكذا تحقق النجاح الكبير، والفوز المبين.

1. ثقافة الاختلاف وحرية الاختيار:

ليس أحدا بديلا عن الآخر وأن لكل إنسان وجهة هو موليها، وأن حرية الاختيار هي كرامة الإنسان الذي أسسها الإسلام بقوله (لا اكراه) وأن المطلوب هو انسنة علاقات التعامل، وبناء المشترك الإنساني وتوسيع دائرة التفاهم، وتكريس حقائق التعارف والتعايش والاعتقاد بأن ذلك هو مقصد الدين، وغاية التدين، فالاختلاف والتنوع بل والتدافع الحضاري هو سنة من سنن الآفاق والأنفس بها يتحصل النمو ويتحقق الارتقاء في مدارك الكمال ويتم من خلالها التلاقح والتناغم والتوالد والامتداد قال الله تعالى ( ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك) فاذا ابصرنا هذه الحقائق الحياتية والكونية فقد استوعبنا رحلة الحياة"[[7]](#footnote-7) فحقيقة الحياة، ولذتها ورغبتها تكمن في علاقة الانسان بالآخر في جو من التراحم والتعاطف والمساعدة والتعاون والتضامن والتآزر والتآخي، بغض النظر عن اختلاف في الدين والجنس واللون والعرق، والايمان بانهم مساوون معززين مكرمين، ولا فضل لاحدهم على آخر الا بالتقوى باعتبارها قيمة اخلاقية كبرى. وكل الاديان جاءت لإتمام وتنزيل مثل هذه القيم، حتى في اجوبتها عن التساؤلات والاشكالات ينبغي أن تكون الاجابات والردود اخلاقية، لهذا " لا بد أن يكون الجواب الاسلامي، في جملته، جوابا أخلاقيا، لأنه ينبني أساسا على ما جاء به دين الاسلام، وصلة الأخلاق بالدين لا ينازع فيها إلا مكابر، وقد تتخذ هذه الصلة صورا عدة، إحداها، أن الدين هو الأصل في مكارم الأخلاق، والثانية أن الدين هو في التقويم الأخلاقي للأفعال ، والثالثة أن الدين كله أخلاق، أحكاما ومقاصد. ويبدو أن الصورة الأولى هي التي استأثرت باهتمام جمهور علماء المسلمين، بحيث يعدون ( مكارم الأخلاق) جزءا واحدا من أجزاء الدين، وقد يكون جزءا لا يفسد به نظام الحياة ولو وقع تفويته، وفي هذا تقليل من شأن الأخلاق. والحال أن نظام الحياة في المجتمع الإنساني لا يقوم إلا بقيام الأخلاق بين أهله، لذا لا نجد بدا من مخالفة رأي الجمهور. أما الصورة الثانية، فهي تقر للدين بدور أبلغ أثرا، حيث ترى أنه يورث الإنسان الضمير الأخلاقي، وهذا أيضا ما لا نراه يتفق مع مقصد الدين، فلم تأت الأديان كي تعلم الأقوام ما يستغنون فيه بعقولهم، وإنما ما لا تنفعهم فيه هذه العقول، وليس ذلك إلا مجال القيم المثلى التي ليست بوقائع يشاهدونها ولا بأفكار يجردونها، وإنما هي معان تعرج بروح الإنسان إلى عوالم أخرى وتسري به في آفاق أخرى، فيلزم أن تكون هي مدار الدين كله، لا جزئه كما في الصورة الثالثة. وحتى على فرض أن الدين يعلم الأقوام ما قد يدركونه بعقولهم، فهو أجدر بأن يعلمهم القيم العليا التي تقترن بهذا الذي يدركونه بعقولهم."[[8]](#footnote-8) فالظاهر أن الدين يعلم للناس القيم العليا التي بها تسمو نفوسهم وتزكو بها ارواحهم وعليها تسير انظمتهم وشؤون حياتهم.

1. تجديد الفكر الاسلامي:

ومن ثم كانت الدعوة إلى تجديد الفكر الإسلامي لا تعنى نزهة في عالم الثقافة والمعرفة، تسرح فيها العقول فترفه عن ذاتها، وتضيف الى حالة الترهل مزيدا من الكسل الذي يساهم في استبقاء التخلف، وإنما هي دعوة لاستفراغ الوسع والطاقة لخلق صيغ فكرية وفقهية جديدة تعمل على تعديل الصور المعكوسة في نفوس جماهير أمتنا عموما وشبابنا بشكل مخصوص وتعلمهم كيفية الموازنة بين النسب والأحجام والأوزان والكتل، فلا يصح ولا يجوز تكبير الصغير ولا تصغير الكبير، ولا يمكن أن يكون مقبولا أن تصنع المعارك حول توافه الأمور بينما أمهات القضايا تهمل بلا بحث أو اهتمام علمي رصين."[[9]](#footnote-9) فالأمة في فكرها انقسمت الى فرقتان، الاولى اعتقدت ان لها من القوة والريادة ما يكفي، وظلت تفتخر بأمجادها وماضيها المجيد دون السير على منهجهم واسلوبهم وعلى طريقة تفكيرهم في الحياة، اي لا يحركون ساكنا ولا يسكنون متحركا، والثانية استسلمت للواقع المرير واعتقدت ان النهاية حانت والقيامة اقتربت ووصلت. في الوقت الذي كان على الامة ان تستفيد من ماضيها الغني والمجيد، وتستوعب حاضرها وتستفيد من كل صالح نافع، محاولة بكل ما اوتيت من جهد وقوة وطاقة ان تخرج من الازمة والضيق والتيه الذي انغمست فيه، وتحقق النهضة والتقدم واللحاق بالركب الحضاري. " ان الانفصام الفكري الذي تعيشه أمتنا في عصرها الراهن على مستوى العقل الجمعي في العصر الحديث، تسبب في حالة من التراجع الحضاري، اختلط فيها حلم النهضة الغائب والمستكن في أعماقها، بضباب الرؤية، وانفصل فيها الواقع المنسحب عن قمة أمجاد الآباء الكبار فاصطدمت طموحات المنى في التصور والفكر، بأعلى تجليات الخلل والفوضى في الواقع المحسوس، الأمر الذي أفرز حالة من التقوقع على الذات والانكفاء على الماضي، وإن كان مجيدا وعظيما، فلم تستطع الأماني واحلام النهار أن تعفي أمتنا من دفع ضريبة الغياب عن الحاضر وهي فاتورة تكاليفها باهضه وطعمها علقم، لأنها تدفع من حرية المسلم وكرامته، وتجعل إرادته رهينة حفنة من قمح يقتات بها، أو قطعة من سلاح يدافع بها عن نفسه وعرضه ووطنه.

وختاما فان تفعيل القيم على الواقع، بات لزاما واصبح واجبا على الجميع، بدءا من الفرد مرورا بالأسرة وصولا الى المجتمع، حيث لا يمكن للإنسانية ان تحضي بالسعادة والهناء، وتعيش في سلم وسلام، وتحقق الامن والامان، الا بتنزيل تلكم القيم وتجسيدها على الواقع كما بينها القرآن الكريم، ووضحتها السنة النبوية العطرة. يقول النبي صلى الله عليه وسلم " اني تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي ولن يفترقا حتى يردا علي الحوض [[10]](#footnote-10)". فلا خلاص للإنسانية الا بالتمسك والاعتصام بالوحي بشقيه. لان الله عز وجل هو الذي خلق الانسان وهو الذي يعلم ما يصلح للإنسانية وما ينفعها.

1. ونحن نبني حضارة ، فتح الله كولن، ترجمة، لطفي أو غلو، دار النيل، ط 2، سنة 2011م، ص 15. [↑](#footnote-ref-1)
2. مشكلات الحضارة شروط النهضة، مالك بن نبي، دار الوطن، 1437ه/ 2016م، ص 56. [↑](#footnote-ref-2)
3. ونحن نبني حضارة ، فتح الله كولن، مرجع سابق، ص 21. [↑](#footnote-ref-3)
4. قيم الاسلام الحضارية، ع الفتاح الخطيب، مرجع سابق، ص 28. [↑](#footnote-ref-4)
5. دور القيم الانسانية كأساس للارتقاء بواقع الانسان والمرأة في العالم العربي ، ياسر العيتي ، ص 5. [↑](#footnote-ref-5)
6. ونحن نبني حضارة، كولن ، مرجع سابق، ص 18. [↑](#footnote-ref-6)
7. قيم الاسلام الحضارية نحو انسانية جديدة، محمد ع الفتاح الخطيب، ط 1 ، سنة 1431ه، ص 10. [↑](#footnote-ref-7)
8. حوارات من اجل الذكرى والذاكرة، سعيد شبار ، مرجع سابق، ص 127. [↑](#footnote-ref-8)
9. منظومة القيم وعلاقتها بتجديد الفكر الاسلامي، إبراهيم أبو محمد، المؤتمر العام الواحد والعشرون، للمجلس الاعلى للشؤون الاسلامية، ص 5. [↑](#footnote-ref-9)
10. برنامج جوامع الكلم، المستدرك على الصحيحين، رقم الحديث 290. [↑](#footnote-ref-10)